اسم الدرس : يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم

تصنيف الدرس : درس

{إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥) يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨) كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا ۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ (١٩)} [الانفطار:١-١٩]

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

بسم الله، والحمدلله، والصلاة والسلام على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-

مجلس اليوم: وقفة سريعة مع سورة الانفطار

هناك خطبة سابقة بفضل الله تعالى عن سورة الانفطار، وكنّا قد مررنا عليها مرورًا سريعًا، واليوم هناك معنى محدد نريد أن نتكلم عنه، نعيشه من خلال سورة الانفطار.

لقد شرحنا من قبل في جلسة عن سورة مريم -في مقدمتها- وتكلمنا أن كل سورة من سور القرآن أحيانًا تدخل لها من موضوع معين تعيشه أنت، لكن ليس بالضرورة أن يكون هذا هو الموضوع الوحيد في السورة..

فمثلًا، قد يكون هناك شخص متأثر بقضية الخوف على الرزق، فيجد أن سورة معينة تكلمه عن هذا الموضوع

ليس معنى أنه وجد علاجًا -في قضية حب الدنيا أو الخوف على الأمن أو الخوف على الرزق- في سورة معينة، **لا يعني هذا أن السورة تعالج هذه القضية فقط،**

لا، القرآن مثاني!

ومن المعاني التي قيلت في "**مثاني**": **أن هناك معانٍ معينة تتكرر، مثاني أي تُثنّى وتُكرّر.**

هناك معنى نريد أن نركز عليه اليوم في سورة الانفطار، هذا المعنى آيته المحورية:

{يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ} [الانفطار:٦]

قضية أن يغتر الإنسان بمعاملة الله له، يغتر ليس فقط بمعاملة الله، وإنما بكرم الله

من أكثر الأشياء التي يمكن للإنسان أن يغتر بمعاملة الله تعالى فيها، ويمكن للأسف أن يتمادى، ويظل داخل منظومة معينة من ضياع الصلوات، ضياع معاني الإيمان،

هو: أن تظل الحياة كما هي بدون تغيير (أي أن أمور حياته على ما يرام بلا أي ابتلاءات) رغم أنه مازال يتغير للأسوأ.

المؤمن قد يعتاد في علاقته بالله أنه عندما يتغير للأسوأ فإن معاملة الله له تتغير، فيجد صعوبةً في الحياة، فيجأر ويقول له: "يا رب تبت إليك وأنبت"

فتعود المعاملة..

المؤمن اعتاد على هذه المعاملة،

المؤمن اعتاد أنه عندما يخطئ، أو يضيع صلاة الفجر أكثر من مرة، أو يترك القيام أو القرآن؛

أن الحياة تتعسر!

مثل أحد السلف الذي كان يقول: (إني أعصي الله فأجد ذلك في خلق دابتي وزوجتي)،

هو اعتاد ذلك..

لكن يُخشى أن يفعل معصية بعد معصية، ويتساهل في الطاعات مرة بعد مرة، ولا يحدث تغيير في المعاملة من الله، يُخشى أن يكون هذا استدراجًا.

فسورة الانفطار بدأت بانقلاب في الكون،

تغيير للأحوال الثابتة منذ زمن في الكون..

السماء ثابتة ومرفوعة، وفجأة انفطرت!

الكواكب المنظمة انتثرت،

البحار المستقرة فُجرت،

القبور الموجودة منذ قديم الزمان بعثرت..

بعد هذا التّغيُّر الرهيب الذي يحدث في الكون، تبدأ المحاسبة على أعمالك التي عملتها ونسيتها،

فتحاسب عليها:

{عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ} [الانفطار:٥]

ستُحاسَب على القديم والجديد

ويُقال لك بعدها:

{يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ} [الانفطار:٦-٨]

الله سبحانه وتعالى يقول لك أنه سبحانهُ ليس فقط قادر على تغيير الكون، وتغيير أحوالك،

وإنما قادر على أن يغيّر شكلك!

{فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ} [الانفطار:٨]

أحد المعاني فيها: أن الله قادر على أن يجعل صورة الإنسان -والعياذ بالله- في صورة حمار أو خنزير، يُمسخ الإنسان كما مُسخت بني إسرائيل.

فهناك نفوس -عافانا الله- تُمسخ..

إذا كان المسخ وُجد في بني إسرائيل أكثر، فيمكن أن تُعاقب هذه الأمة،

بعضها يُعاقب **بمسخ النفس**؛ أن تصبح نفسه نفس شهوانية تمامًا -والعياذ بالله- عافانا الله وإياكم..

نفس لا تفكر إلا في الأرض،

مثل الأنعام منشغلة بالأرض فقط،

ليست منشغلة بالسماء وإنما منشغلة بالطين؛

أي منشغلة بزينة الدنيا فقط.

لماذا من الممكن أن يفعل الله هذا بالإنسان؟

لأنه اختار ألا يسير في طريق الله، وظلت الرسائل تأتيه من الله دون جدوى،

يرسل له رسالة واثنتين وثلاثة ولكنه يُعرِض..

الخطورة كما ذكرت لكم أن **الإنسان قد يفعل المعصية وحياته تظل كما هي.**

فمثلًا، من رحمة الله -سبحانه و تعالى- أنه خلق لنا في جسدنا مستقبلات حسية، مثلًا للحرارة،

فلو أمسكتَ كوب الشاي وكان ساخنًا جدًا فأنت تشعر بحرارته وتتألم،

لكن لو لم تشعر بحرارته؛ فإن جلدك قد يحترق وتظل ممسكًا بالكوب وأنت لا تشعر!

وقد يتساقط الجلد من شدة الاحتراق، وأنت لا تشعر ولا تتألم!

لذلك، حرارة الجسم عندما ترتفع فهذا يعني أن هناك مشكلة تحتاج إلى سرعة كشف أو فحص لتناول العلاج المناسب..

فمن رحمة الله تعالى بك أنه خلق مستقبلات تحذرك قبل أن ينتشر المرض.

يقول أحدهم أنه ذات مرةٍ أحس بالألم، فذهب بسرعة إلى المستشفى، واكتشف أنها بدايات ذبحة!

الحمدلله، لو لم يشعر بالألم -الضغطة التي كانت على صدره- كانت ستصبح جلطة ويموت بسببها،

لكن الألم الذي ضغط على صدره بقوة -بالرغم من كونه مؤلمًا- و هو شيء صعب،

لكن هذا أنقذ حياته..!

مثلما حدث مع أحد الإخوة قريبًا، فعندما أحس بضغطة أسرع إلى المستشفى والله سبحانه وتعالى أنقذ حياته.

فالآلام التي تجدها أحيانًا في الابتلاءات والمصائب تجعل الإنسان يعود ويؤوب..

المصيبة أن يُغيَّر في حياته للأسوأ مرة واثنتين وثلاثة، ويمر ذلك بطريقة عادية جدًا،

فأول مرةٍ يفوته الفجر يتألم، عند أول مرة بدأ يترك القيام يتألم،

حياته الإيمانية ومعاني الإيمان التي كانت موجودة بدأت تقل..

كان متألما و بدأ يشعر بهذا في أمور حياتية،

أن ينكسر زجاج السيارة، أو ينكسر مفتاح داخل الباب أو تحدث أمور غريبة،

فيبدأ يسأل نفسه ما هذا الذي يحدث؟

ثم يتوقف ويحاسب نفسه..

لكن،

لو أكمل ما هو عليه من الخطأ والانحدار الإيماني ولم يفكر،

فمن الممكن أن يُفاجأ أن الحياة تمر بشكل جيد جدًا..

فمثلًا يستيقظ الساعة السابعة كل يوم أو الثامنة ولم يعد يستيقظ لصلاة الفجر،

وقد كان معتادًا في السابق أنه إن فعل هذا أن تحدث مشكلة في العمل غالبًا..

الآن أصبح يستيقظ في الثامنة، ولا يستيقظ للفجر، ويذهب للعمل ويجد كل الأمور طيبة جدًا!

أصبح من الممكن أن يجري بعد الظهر ليُدرك الركعة الأخيرة وقد لا يُدركها،

وقد يؤخر صلاة الظهر فيصليها في جماعة متأخرة قبيل العصر..

عندما كان يحدث ذلك من قبل؛ كان يشعر بتعب في قلبه طوال اليوم،

ولكن الآن أصبح يؤخر الظهر حتى العصر ولا يشعر بشيء!

يعود من العمل فينام ويستيقظ، وهو يقول لنفسه لا أقصد أن أُفوِّت العصر –وهو متعمد لأنه عاد ونام– ثم استيقظ المغرب وقد خرج وقت العصر،

دخل في صلاة المغرب وانتهى ولا يعرف ماذا قرأ الإمام!

ذهب لقضاء أمر خاص به، فتأخر عن صلاة العشاء، فقال: العشاء ممتدة أصليها ليلًا،

وهكذا..

بدأ يتعامل مع الفروض بتساهل وهو غير متعمد أن يتركها؛

لكنهُ لم يعد الدين يأخذ مركزًا محوريًا في حياته.

الخطر أن –مع هذا التساهل في أمور الدين– لا يشعر في حياته بأي شيء غريب،

أي أن حياته تسير طبيعية بلا أشياء توقظه!

هذه مصيبة!

هذا أمر يتطلب وقفة مع النفس!

لماذا؟!

لأن ربنا سبحانه وتعالى خلق الإنسان وبداخله مشاعر خوف،

الإنسان يشعر بالخوف إذا أحس أن الله ليس معه..

المشركون عندما يكونون في منتصف البحر يقولون يا رب!

لماذا؟!

لأنه ينظر حوله فلا يجد أصنامًا نافعة ولا أصحابًا نافعين ولا سادات قريش نافعين،

فيا رب، ليس لنا غيرك، ويرمون الأصنام في البحر..

إحساس مرعب!

أن تشعر أن الله تركك في هذا الكون، وأنت ستقاوم هذا الكون وحدك!

من أمراض وميكروبات وزلازل وبراكين وبلطجية ومشاكل في الأمن وضغوطات الرزق..

كيف ستواجه هذا وحدك؟!

أنت لا تستطيع إلا أن تقول يا رب!

أصلًا هناك مشاكل كبيرة ليس لها حلٌّ إلا أن تقول يا رب!

فتخيل أن تستشعر أنك وحيد.

الخطورة،

أن تشعر أنك وحدك وتستطيع أن تقاوم هذا..

هذا وهم!

{كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى} [العلق:٦، ٧]

فيبدأ يشعر: أنا استطعت أن أحل المشكلة!

بالطبع لا، يقول هذا بلسانه، هذا يكون من داخله فقط!

يقول لك مثلًا المشكلة حُلَّت دون أن أصلي..

كان في الماضي يقول: هذه المشكلة تحتاج أسبوعًا من قيام الليل، تحتاج ساعة إجابة، يوم الجمعة من العصر إلى المغرب متواصل

كان في الماضي يتعامل بهذه الطريقة مع المشكلة وكانت تُحل..

الآن، المشكلة تكون موجودة ويفكر فيها يومين ويحلها،

لو فكر ولم تُحل؛ سيرجع لساعة الإجابة، سيرجع لحضور الدرس

سيرجع يبكي ويقول: يا رب ليس لي أحد سواك، يا رب لا أستطيع العيش بدونك.

المصيبة؛ أن يفكر يومين وتُحل المشكلة!

فيُستدرج في اتجاه الاستغناء،

أنه مُستغنٍ ولا يحتاج الله!

يقول: استطعت أن أحل المشكلة، فعندما حدثت المشكلة كلمت فلانًا أو فكرت أو كذا وحُلت.

الخطر الأشد –وهذا من الاستدراج–: **أن تُحل المشكلة بالبعد عن الله!**

في الماضي كان إذا جلس يحل المشكلة فانشغل بها وفاته وقت الفرض،

كان يحس أن المشكلة تزداد تعقيدًا.

الآن يجلس لحل المشكلة ويفوت وقت الفرض وتُحل،

هذا هو الخطر!

في الماضي كان يذهب لقضاء بعض أموره فيترك الصلاة ليقضي هذه المصلحة،

في الماضي كان الأمر يتعقد والمصلحة لا تُقضى!

فيقول: لا، لن أترك الصلاة مرة أخرى من أجل قضاء مصلحة!

لسان حاله: كل مرة تركت فيها الصلاة من أجل قضاء مصلحة تتعطل المصلحة،

أنا سأصلي وليذهب أي شيء إلى الجحيم!

فيلتزم بالصلاة وتنقضي المصالح..

الآن أصبح يترك الصلاة والمشكلة تُحل، فيظن أنه في مأمن!

والأخطر من هذا –وهذا ما أتحدث عنه اليوم– **أن يغتر بالله!**

بمعنى أنه يقول: لا لا لا، الله يعاملني (أي يكرمني)،

الله الذي حلها لي وأنا بعيد عنه!

الرجل الذي شعر بالاستغناء وقال أنا لا أريد الله،

هذا يمكن أن يتعظ إذا جاءته حادثة أو إذا مات أحد عزيز عليه، فيُفيق من غفلته.

أما الأخطر؛ أن يبتعد عن الله، ويعتقد أن الله يراضيه..!

لماذا لا يعاقبه الله، وليس بينه وبين الله نسب، لماذا؟

يوسوس له الشيطان: لأن لك تاريخًا، لك تاريخ في الالتزام، فعلتَ من قبل الكثير والكثير.

نعم، هذا الكلام ممكنٌ فعلًا؛ إذا سقطت أو تعثرت في الطريق، مرة واثنتين وثلاثة ولك ماضٍ،

مثلما قال الله:

{فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ} [الصافات:١٤٣، ١٤٤]

ومثلما قال الله عن سيدنا سليمان:

{وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ} [ص:٤٠]

له رصيد عند الله..

لكن الخطر أن **تتمادى!**

مثلًا، أنا في فترةٍ من الزمن كنتُ متحمسًا؛ فطلبت علم وعملت في الدعوة، بذلت مجهودًا في الدين،

أحسستُ بنمو الإيمان، أحسستُ بحسن معاملة الله لي..

بعد هذا، بدأتُ أتعثر وأسقط..

في أثناء ذلك ابتلاني الله بابتلاءات معينة،

ولكني لم أفق من غفلتي، واستمررت في التعثر وبُعدي عن الله،

وبدأت الأمور تنفرج والابتلاءات تزول وأنا مستمر في البعد عن الله

أحيانًا يقول لك الشيطان: لا لا،

الله يعاملك (أي يكرمك)، الله يراضيك!

والإنسان –للأسف– يُحب الدنيا، ويُحب أن تنقضيَ المصالح،

فعندما تسير الأمور بشكل جيد وهو بعيد عن الله،

وإضافةً إلى ذلك يُقال له أن الله راضٍ عنك،

ماذا يريد أكثر من ذلك؟!

الشيطان يزين له،

هذا هو **الاغترار بالله!**

بمعنى أنه ليس مستغنيًا عن الله،

لا لا، إنه **مغتر بالله** والعياذ بالله.

مثلًا ابن عاق، وأبوه يعامله بصورة معينة، فيعتقد أنه بارّ بأبيه،

لا..

إذا كان الإنسان يمكن أن يفعل هذا معك لأي اعتبارات أخرى،

أما من الله فيُخشى أن يكون **استدراجًا**.

يمكن أن يقول أحدهم: كيف تركه الله يفكر هكذا؟

بمعنى، لماذا تركه الله يظن أنه راضٍ عنه؟

تخيل معي مثلًا..

شخص منذ فترة لا يصلي جيدًا، ولا يقرأ القرآن، ولا يقوم الليل، ولا يدعو ولا يوجد أي معنى من معاني الإيمان نهائيًا في حياته،

ثم يقع في مشكلة كبيرة وتُحَل،

ثم بعد هذا يقول الحمد لله..

الله لم يرسل له شيئًا يُنبّهه أنه يسير في الاتجاه الخطأ؛

لأن هناك قوانين ثابتة،

وهذه القوانين نزلت في القرآن

لن يرسل الله لك ملكًا مرةً بعد مرة ليقول لك أنك على خطأ!

هناك قوانين ثابتة، ارجع للقرآن، قس نفسك على القرآن.

ألم يقل النبي صلى الله عليه وسلم:

" إذا رأيت الله عز وجل يعطي العبد من نِعَمِه وهو مقيم على معاصيه فاعلم أن ذلك منه استدراج"[1] ؟!

[1] [عن عقبة بن عامر:] إذا رأيتَ اللهَ تعالى يُعطي العبدَ من الدنيا ما يُحبُّ، وهو مقيمٌ على معاصِيه؛ فإنَّما ذلك منه استدراجٌ

هناك قوانين لا تتغير،

لا تغالط نفسك وتقول: ربما هي جائزة!

لا، ليست جائزة!

ربُّنا ليس بينه وبين أحد من العباد نسب، هي معاملة ثابتة للجميع

وهذا الكلام أوجهه لنفسي بداية؛

لأنني عندما قرأت السورة من فترة قريبة أحسست بهذا المعنى؛

أن أسوأ ما قد يحصل أن أحدنا يتساهل في العبادة!

يتساهل في علاقته بربه!

يتساهل في الدعاء!

في الماضي كان يوم الجمعة وساعة الإجابة هي التي تحلُّ مشاكل الأسبوع، لم تكن تمر هكذا،

أما الآن صار يقول:

أنا صليت الجمعة وسمعت الخطبة، وتعبت في الزحام، ولما رجعت، أكلت ونمت، وفاتتني صلاة المغرب وساعة الإجابة فلم أدعُ، واستيقظت قبيل العشاء فبالكاد أدركت الصلاة..!

لم يعد الدعاء ركنًا أساسيًا في حياته!

ثم يقول بعد هذا كله: ربنا كريم!

هذا **اغترار!**

{مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ} ؟!

هو كريمٌ فعلًا —سبحانه–،

لكن أنت، **مُغترّ بالله!**

الله كريم لم يُعجّل العقوبة، نعم،

لكن هذا التفكير خاطئ!

حياتك هذه يمكن أن تنقلب،

ليس حياتك فقط، بل شكلك أيضًا!

{فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ} !

الألباني (١٤٢٠ هـ)، صحيح الجامع ٥٦١ • صحيح

والخطورة في هذا أن ينسى الإنسان الدار الآخرة:

{كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ} [الانفطار:٩]

الدِّين؛ **أنَّ كلَّ شيء تفعله ستُدان عليه،**

ليس هناك شيء اسمه: "أصل هيّ بتعدّي"

فتتساهل..

في السابق **كان يمكن أن يشعر كيف يعامله الله..**

أن النظرة الحرام التي نظرها، والمعاملة الحرام التي تعاملها مع النساء، كان يجد لها أثرًا مباشرًا؛

حادث في السيارة، صداع شديد، ..

كان مباشرةً يحس بأثرها..!

وقد لا يكون بلاءً حسيًا، مثلًا وحشة في الصدر، تضايق،..

وهذا –كما أظن– جاء فيه أثر عن أمنا عائشة ذكره الإمام الطبري في آخر سورة البقرة في آية:

{وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ} [البقرة:٢٨٤]

قالت رضي الله عنها:

من المعاني أن الإنسان عندما يهمّ بالمعصية قد يكون عقاب هذا الهمّ بهمٍّ يجده في الحياة الدنيا [٢]

أي يشعر بأنه مختنق، لديه هموم..

هذه الهموم بسبب أنه كان يفكر في شهوات، أو يفكر في معاصٍ،

فالهم بالمعصية أعقبه همًا، بدأ يُخرِج المعصية ويعملها فبدأ العقاب أيضًا يأتيه خارجيًا.

---

[٢] قال ابن جرير الطبري في تفسير الآية:

٥٠٩١ - حدثني يحيى بن أبي طالب ، قال : ثنا يزيد ، قال : أخبرنا جويبر ، عن الضحاك في قوله : { وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله } . .. الآية ، قال : كانت عائشة رضي الله عنها تقول : **من هم بسيئة فلم يعملها أرسل الله عليه من الهم والحزن مثل الذي هم به من السيئة فلم يعملها ، فكانت كفارته** . *

- حدثت عن الحسين ، قال : سمعت أبا معاذ ، قال : أخبرنا عبيد ، قال : سمعت الضحاك يقول في قوله : { وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله } قال : كانت عائشة تقول : **كل عبد يهم بمعصية ، أو يحدث بها نفسه ، حاسبه الله بها في الدنيا ، يخاف ويحزن ويهتم .** *

- حدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين ، قال : ثني أبو تميلة ، عن عبيد ، عن الضحاك ، قال : قالت عائشة في ذلك : **كل عبد هم بسوء ومعصية ، وحدث نفسه به ، حاسبه الله في الدنيا ، يخاف ويحزن ويشتد همه ، لا يناله من ذلك شيء ، كما هم بالسوء ولم يعمل منه شيئا .**

٥٠٩٢ - حدثنا الربيع ، قال : ثنا أسد بن موسى ، قال : ثنا حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد ، عن أمه أنها سألت عائشة عن هذه الآية : { إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله } { ومن يعمل سوءا يجز به } ٤ ١٢٣ فقالت : **ما سألني عنها أحد مذ سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : " يا عائشة ، هذه متابعة الله العبد بما يصيبه من الحمى والنكبة والشوكة ، حتى البضاعة يضعها في كمه فيفقدها فيفزع لها ، فيجدها في ضبنه حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج التبر الأحمر من الكير "** .

كانت المعصية من قبل لا تمر، كان يُدان عليها في الدنيا،
الآن لم يعد يُدان عليها في الدنيا..
وليس معنى أن المعصية لا يُعجَّل بعقوبتها فيه الدنيا أنها "مرّت بسلام"، كلا!
هناك يوم اسمه **يوم الدين!**
هذه المعصية كُتبت، وستُدان عليها وستُحاسب!

الذي نريد أن نخرج به: **ألَّا نغتر بربنا**
نحن مغرورون فعلًا..
فليس معنى أنني ملتحٍ، وأن لي تاريخًا في الالتزام، وأن الناس تقول لي: "يا عم الشيخ"،
وليس معنى أن الناس تقدّمني للإمامة، وأنني أصحّح التجويد، وأن لي تاريخًا في الالتزام،
لا يعني هذا كله أن تساهلك وتدهورك الديني يمر دون عقوبة عاجلة؛
أن تقول: هذا من عند الله، كلا!
أنت قد تُعامل وكلنا –والكلام لنفسي طبعًا– **قد نُعامل معاملة استدراج!**
{وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا..} [الأعراف:١٧٥]

للتو أحد الإخوة أرسل لي مشكلة كان قد وقع فيها أحد زملائه،
وأنا أقرأ القصة أجد نفس السيناريو، لا جديد،
مع أننا اعتدنا أن الشيطان يبتكر، لكن نفس السيناريو!

يقول: المفروض أن هذا الشخص الذي سقط –عافانا الله– كان له دور في خدمة الدين،
كان منذ فترة قد بدأ يقصّر في النوافل أولًا، ثم يقصّر في الفرائض، يقصّر في كذا..
ورغم أنه مقصّر، لكنه يستطيع أن يتكلم جيدًا عن معاني الدين الكبيرة،
يقول أننا ضد الظلم، ويجب أن نفعل كذا وكذا..
وأخذ يبتعد، يبتعد، والصلاة تتفلت منه حتى بدأت تظهر عنده شكوك حول الدين!
لأنه ابتعد وصار محتاجًا لأن يكلمه أحد، بعد أن كان هو الذي يتكلم..!
كان يقول: "لا، يستحيل أن أصل لهذه المرحلة.."!
لماذا مستحيل؟!

في قول الله –عز وجل– في آخر الأعراف:

{إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ * وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ} [الأعراف:٢٠١]

الشيخ حبنَّكة الميداني في تفسيره يقول:

{ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ}

أي الإنسان الذي يقع في المعصية ويستسلم للشيطان،

ويصبح الشيطان من إخوانه –الإنسان يؤاخي الشيطان أحيانًا–؛ {وَإِخْوَانُهُمْ}

{يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ}

يقع في المعصية وراء المعصية..

{ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ}

لا يستطيع أن يقف!

أشبه بإنسان يقع من أعلى جبل فلا يستطيع أن يتوقف،

فأحيانًا هو يعلم أنه مخطئ لكن لا يستطيع أن يقف، يترك نفسه!

فنحن لا نريد أن نصل للاغترار بالله،

يجب أن نقف من البداية ونعود ونؤوب مرة أخرى..

من البداية عندما أشعر أن الأمور لا تسير بشكل سليم؛ لا أقول: "ستنصلح الحال"..!

أحد الإخوة أيضًا كان قد أرسل لي مشكلة يتكلم فيها عن نفسه، والأخ هذا يعمل في الدعوة –ما شاء الله لا قوة إلا بالله–، وعمل جهدًا دعويًا كبيرًا، ثم يقول لي:

أنا وقعت في كذا وكذا،

فصُدِمت!

ثم يستأنف كلامه:

قلت لنفسي: شوية وستُضبَط وحدها وأعود كما كنت، المهم أن أستمر في الدعوة كما أنا،

لكن المعاصي والطاعات والفرائض والنوافل والصيام والقيام، كل هذا سيرجع مرة ثانية لوحده!

يقول:

اكتشفت أنني لا أرجع، بل أن الموضوع يسوء ويسوء،

ووقعت في أمور لم أكن أقع فيها أصلًا قبل الالتزام!

فقلت له:

كيف سترجع وحدها؟ هل هي في البداية جاءت لوحدها؟ أم بالجهاد؟!

كيف سترجع وحدها؟

كيف لا تُغير مكانك حتى لا تقع في المعصية؟

الاحترازات التي كنت تخاف منها سابقًا؛ لماذا لا تفعلها الآن؟!

المشكلة التي تحدث أننا في بداية الالتزام نكون مرتعبين،

تركنا أرض المعصية فنخاف أن نقع..

نخاف من شهوة النساء، نُرعب من الرياء..

سمعت –مثلًا– درسًا للشيخ يعقوب، وسمعت خطبة، فبكيت وشعرت بالحرارة الإيمانية!

فبدأت في الالتزام بفضل الله وانطلقت..

طلبت علمًا، حضرت دروسًا، عملت في الأعمال الخيرية،

عملت في الدعوة، تحركتَ سنينًا، ثم حدثت الأزمات..

أزمات سياسية، أزمات سقوط بعض الرموز، جعلت الناس تصاب ببعض الإحباط،

بدأت الأمور تتحسن من جديد،

يريد أن يعود دون أن يبذل من الجهد بقدر ما بذل في البداية..

لا، هُنا نريد أن نبدأ من جديد!

سنبذل من جديد كما كنا في البداية..

أي ستعود للبذل والتعب، وضبط المنبه على ميعاد الفجر، وتكلم أحدهم ليوقظك لصلاة الفجر وللقيام..

أحتاج أن أبذل الجهد القديم مرة ثانية وثالثة ورابعة!

لا تقل: سأعود كما كنت من قبل بدون جهد وبذل لأني مضى لي سنين في الطريق!

لا تقل: لن أكون كالصغار ممن يبدأون من نقطة البداية!

كلا!

بل ستكون مثل الصغار كمن يبدأ من نقطة البداية،

جميعنا سيكون كذلك،

كلنا سنبدأ كالصغار، من البداية..

ولكنني شيخ..!

نعم أعلم أنك شيخ، **ولكنك لازلت لله عبدًا!**

لن نكون كالصوفية نقول: واعبد حتى يأتيك اليقين؛ وقد وصلتُ لمرحلة اليقين فلن أحتاج للتعب مرة أخرى..!

كلا!

فأنت في مجاهدة إلى أن تموت!

{مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [العنكبوت:٥]

ستظل تجاهد إلى أن تلقى الله !

{وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}[العنكبوت:٦] في أول السورة

فبدأت سورة العنكبوت بالمجاهدة وخُتمت بالمجاهدة، ففي آخر السورة:

{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت:٦٩]

الكلام موجهٌ للملتزمين، للذي مر عليه فترة في الالتزام..

أخاطبُ نفسي،

أخاطبُ من طال عليه الأمد،

من التزم منذ فترة و بدأ يشعر أنه غير محتاج للمجاهدة..

مثلًا: أُعطي درسًا عن أنك لابد أن تجاهد في زيارة المقابر وحضور الجنائز، لكن أنا لا أفعل!

وأحدكم يسألني لم لا تزور معنا؟

أقول له أنا من يعطي الدرس!

أنت تتكلم عن الدين ولكنك لا تطبق الدين!

أنت تتكلم عن القيام لكنك لا تصلي القيام!

أنت تتكلم عن القرآن لكنك لا تقرأ القرآن!

هذه حالة من الاغترار، أنا مغتر بكلامي، بدروسي..

لدي حاله اغترار..

ولماذا مغتر؟!

لأن الله كريم!

فأنت بدلًا من أن يكسرك كرم الله ويعيدك إليه،

جعلت كرم الله سببًا في بعدك عنه!

كن على حذر أن الله قادر على أن يُبدّل حالك وحياتك!

لا يعني حين يُمهلك أنه راضٍ عنك وأنت بعيد،

كلا!

الله قادر على قلب حياتك!

{فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ}

قد يتغير شكلك، قد تُمسَخ نفسيتك –عافانا الله من المسخ–،

فلا تريد العودة لله مرة أخرى –عافانا الله– لم تعد تريد العودة للطريق.

إذًا ما الحل؟!

{كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ}

[الانفطار:٩-١١]

{كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ}

ارجع مرة أخرى، واسمع عن الدار الآخرة، وأنك ستدان على أفعالك، وتعلّم..

{وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ}

ليس معنى أنك نظرت نظرة لامرأة أو فعلت خطأً، اغتبت، نظرت نظرة حرام، ولم تنزل بك عقوبة مباشرة أنك لن تُحاسب؛ كلا!

في السابق كنت معتادًا أني إن فعلتُ ذنبًا؛ سأنزل لأجدَ عجلات السيارة مفرغة، أو يحدث لي حادثة تصادم، أو أعود إلى المنزل لأجدَ مشكلة ما..

الآن المعصية مضت وتخيلت أنها مرت، ولكن كلا، لم تمر!

المعصية كُتبت عليك:

{كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ}

كُتبت، لابد أن تتوب!

فإن تبت ومرت بدون عقاب فهذا من رحمة الله، وهذا من حسن معاملة الله عز وجل..

لكن، لو لم تتب وفعلت المعصية ولم تشعر بأي ضيق،

لم تتب ولم تستغفر، ولم تنزل عليك عقوبة دنيوية،

هذه لم تمر!

هذا اغترار، أن تظن أنها مرت!

كلا،

لم تمر، وقد كُتبت!

{كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ}

ماذا فعلته كُتب، أي فعل فعلته، الله عز وجل يعلمه والملائكة كتبته.

{إِنَّ الأَبْرَارَ لفي نَعِيم * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لفي جحِيم * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّين * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ * وَمَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ} [الانفطار: ١٣-١٨]

كما قال لنا دكتور حازم في لقاء قريب، يقول:

لماذا الإخوة القدامى أصبحوا لا يحبون قراءة **آيات النار**؟!

لماذا لم يعد هناك تأثر وبكاء مع **آيات جهنم**؟!

لماذا الإخوة القدامى في الالتزام لم يعودوا مشغولين **بالدار الآخرة**؟!

قد يكون مشغولًا بهَمّ الدنيا،

لا يصح أن تبتعد عن معرفة الله والدار الآخرة!

هذه المعاني لابد أن تستصحبها من أول التزامك حتى تموت،

هذه المعاني لا يصح أن تتغير!

قد يغطي عليها أحيانًا بعض الأحداث،

يغطي عليها أحيانًا مثلًا نصرة الإسلام، هم الدين، حبك لإخوانك،

لكن تظل هي الأساس!

{وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا ۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ} [الانفطار: ١٧-١٩]

فلو أننا سنخرج بشعارٍ نخاطب به أنفسنا اليوم،

أريد أن أقول لنفسي شيئًا مهمًا اليوم،

أقول: (ما غرك بربك الكريم) ؟!

لِمَ أصبحت هكذا؟!

لم لا تخاف؟!

أنت مضيع لصلاة الفجر.. نعم!

مضيع للقرآن الكريم.. نعم!

مضيع للدعاء.. بكل صراحة نعم!

مضيع لمعاني الإيمان.. نعم!

مضيع للقيام.. نعم!

حياتك تسير على ما يرام.. بصراحة نعم!

كل هذا، ولا تشعر أنك على خطأ؟!

هذا غرور!

هذا اغترار بالله!

حياتك تسير على ما يرام وأنت مُضيع؟!

هذا اغترار بالله! لابد أن تقف!

تقف وتقول:

يا رب أحمدك أنك لم تُعجل العقوبة،

يا رب اجعل كرمك يكون سببًا في رجوعي،

ولا يكون كرمك سببًا في بُعدي.

كما أنك (إن أكرمت الكريم ملكته، وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا)

أي أن الإنسان الكريم حين يُكرَم يشعر بالإحسان..

الكريم الذي تُقدِّم له معروفًا يشكر المعروف،

أما الشخص اللئيم حين يُكرَم،

يقول: أنت طيب، ثم يستغل طيبتك وكرمك هذين فيتمرد عليك،

يتعامل مع كرمك بتمرد!

نحن نتعامل هكذا مع الله –معاملة اللئيم– أحيانًا،

نتعامل مع ربنا حين لا يُعجل العقوبة –كرمًا منه سبحانه وتعالى– **بنوع من الاغترار**

تقول: لقد وجدت الأمور تسير من غير مجاهدة، ومن غير دعاء، ومن غير قيام،

أمور الدنيا ميسرة والحمدالله،

وتزيد ولا يحدث أي مكروه، الله كريم..

وقد كنت متشددًا، كنت قبل ذلك على خطأ،

كنت معتقدًا أني لابد أن أجتهد في الدعاء حتى تتيسر أمور الدنيا،

ولكن، ها هي الدنيا تسير بدون كل هذا!

أنت غير مدرك أنك بهذا تبتعد عن الطريق، وتهبط في درجات الجنة،

ومن الممكن أن تسقط أكثر وأكثر!

لا نريد أن نصل لهذه المرحلة مع الله، نسأل الله السلامة والعافية.

ندعو ربنا ونقول:

اللهم استعملنا ولا تستبدلنا،

اللهم اجعلنا من أهل الصلاة، من أهل القيام، من أهل القرآن، من أهل الصيام، من أهل الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى،

اللهم استعملنا ولا تستبدلنا.

أقول قولي هذا وأدعو الله وأستغفر لي ولكم..

سبحانك الله وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، وجزاكم الله خيرًا.